بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حين تطرق عبارة « الحروب الصليبية » أسماع الناس تنطبع فى مخيلاتهم على الفور صورة ترسبت فى وجدانهم عبر سنوات طوال ، بفضل ما نسج حول هذا الحدث التاريخى الفذ من روايات وقصص ـ حقيقية وخيالية ـ ظلت الأجيال تتناقلها عبر القرون · ومن المنطقى أن تكون الصورة المترسبة فى الوجدان الغربى مختلفة الى حد بعيد ، بل وبشكل جذرى ، عن الصورة الكامنة فى أعماق الشرق الاسلامى ·

ففى الشرق تعنى « الحروب الصليبية » عدوانا شنه الغرب المسيحى ، تحت راية الصليب ، بهدف اقامة نوع من المستعمرات الاستيطانية تكون بؤرة للتوسع الذى يمتد اخطبوطه للقضاء على العالم الاسلامى · وتختلط الفكرة المجردة بصورة المجاهدين الذين تصدوا لهذا العدوان ، حتى تمكن صلاح الدين الأيوبى أن يبدأ الهجوم الاسلامى للتحرير ، وهو الهجوم الذى استدر حتى تم القضاء على فلول الصليبيين المتجمعين فى عكا فى عهد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاون ·

ومن ناحية أخرى ، فان الصورة التى رسمتها المصادر التاريخية العربية لفترة الحروب الصليبية تكشف عن نظرة المسلمين الى أولئك المعتدين ، وهى نظرة عدائية بطبيعة الحال ، فالصليبى ، كما تصوره المؤلفات التاريخية ، مقاتل همجى ، جامد العاطفة ، وهو أيضا كافر ملعون · وليس هناك ما يدعو للدهشة ازاء هذه النظرة العدائية التى تعاملت بها المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية : فالواقع

أن تكفير المقاتل الصليبى ، فى كتابات المؤرخين المسلمين ، نابع من موقف سياسى أكثر منه موقف دينى ، ذلك أن جزءا من ايمان المسلم أن يؤمن بالمسيح عليه السـلام · ولكن حقيقة أن العـدوان الصليبى قد تم على « دار الاسلام » وأن المقاومة الاسلامية ضـده كانت تحت راية الجهاد ، تجعل من غير المنطقى والمقبول أن يرفع المسلمون شعار الجهاد ضد قوم لايعتبرونهم كفارا ·

ومن الطبيعى أن تترسخ هذه الصورة فى وجدان الناس فى مصر وسوريا وفلسطين ، حيث دارت رحى المعـارك الصليبيين ، خاصـة وفى وجدان المسلمين عامة ·

أما فى الغرب الأوربى فان الصورة مختلفة الى حد بعيد ، وهو أمر يبـدو متسقا ومتوافقا مع المنطق تماما · فان الكثيرين من عامة المثقفين المعاصرين فى الغرب اليوم لايكادون يعرفون عن الحروب الصليبية شيئا سوى تلك الصورة الجذابة التى تبرز من ثنايا حوادث تلك الفترة لفارس عملاق ، ذى سترة مصفحة ، يمتطى صهوة جواد فاره ، وقد حمل راية الصليب وأخذ يطارد أبنـاء القبائل العربية الذين يفرون أمامه فى جبن وتخاذل ، تميزهم بشرتهم الداكنـة ، وعزائمهم الخـائرة ، ليخلص قبر المسيح من أيدى المسلمين « الكفار » ·

وعلى الرغم من أنه ليس هنـاك جانب واحـد صحيح فى هـذه الصـورة ، فانهـا قد رسخت فى الوجدان المسيحى الغربى بفعل التراث المتراكم فى ثنايا الكتابات التاريخية المعاصرة لتلك الفترة · لقـد كانت قصـة الحروب الصليبية الحافلة بالاثارة مجـالا جديدا تمام الجدة على مؤرخى أوربا آنذاك ، وقد حررتهم من قيود النماذج والأطر القديمة التى كانوا يصبون رواياتهم التاريخية فى قوالبها الجاهزة · ولـكن هـذا لم يمنعهم من رؤية « الآخر » على أنه عدو كافر يجب قتله وتخليص الأماكن المقدسة من قبضته ·

لقد كانت الحروب الصليبية حربا كأية حرب أخرى ، ومن خلالها برزت رؤية كل فريق « للآخر » وتبلورت بفضل التلاحم العسكرى والاحتكاك الحضارى بشتى جوانبه · هذه الرؤية هى التى فرضت نفسها على سطور الكتابات التاريخية آنذاك ·

والحقيقة عندى أن الحروب الصليبية ليست سوى توضيح درامى له مغزاه يكشف عن الجوانب الرئيسية فى حضارة العصور الوسطى · ذلك لأن هذه الحروب ليست سوى مجرد عامل سببى من عوامل التغير فى العصور الوسطى ، كما أنها كانت تعبيراً عن ثقافة وأفكار ومواقف الناس فى تلك العصور · فالحروب الصليبية تكشف النقاب عن أهل العصور الوسطى ، وتسلط الضوء على خصائصهم بشكل غير عادى ، الأمر الذى يجعلها ظاهرة تاريخية جديرة بالدراسة من جميع الوجوه ·

ويميل بعض المؤرخين ـ وهم غالبيـة ـ الى المبالغـة فى تصـوير الحروب الصليبية على أنها العامل الأساسى فى التغيرات التاريخية التى طرأت على الشرق والغرب منذ القرن الحادى عشر · وربما نقترب من الحقيقة بقدر أكبر اذا قلنا ان الحروب الصليبية تعبير عن هذه التغيرات التاريخية أكثر منها سبب فى حدوثها · فالحروب الصليبية تطور هام فى تاريخ العصـور الوسطى ، بيد أن ذلك يرجـع فى أساسه الى أن هـذه الحروب كانت تعبيرا عن انماط أسـاسية من التفكير والسلوك الأوربى ـ والشرقى أيضـا ـ آنذاك · حقيقة أنه كان للحروب الصليبية تأثيرها على مجرى التطور الأوربى ، ولكن هذا التأثير لم يكن كافيا لأن يغير من اتجاه التطور فى نظم الحكم والاقتصاد والثقافة بشكل جذرى ·

ومن ناحيـة أخرى ، توحى عبارة « الحروب الصليبية » بصـورة فوسان آلهبتهم الحماسة الدينية ففارقوا الأهل والوطن للمشاركة فى حرب مقدسة وعادلة ضد أعداء المسيح · وبالفعل ، حملت الجيوش الصليبية

راية المسيح ، ووضع المقاتلون شارة الصليب على ستراتهم ، كما رفعوا شعار تحرير القدس من أيدى المسلمين ٠

والواقع أن صراعات كثيرة قد دارت حول هذه المدينة المقدسة منذ أقدم العصور ، ولا يزال الصراع مشتعلا من حولها حتى اليوم ٠ فقد ربط الاسرائيليون المحدثون بين الوعد المقدس ومفهوم « الأرض الموعودة » فى العقيـــدة اليهودية ، وبين عدوانهم الاستعمارى الاستيطانى فى الأرض العربية على نحو ما فعل الصليبيون فى العصور الوسطى ٠ فهل يمكن أن تكون المحـــاولة الاستعمارية الاستيطانية التى قام بهـــا الصليبيون على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان نتيجة لهذا الدافع الدينى وحـده ؟ وهل يمكن أن نسلم بالدافع الدينى لدى الصهاينة كمبرر وحيد لاغتصاب الأرض العربية فى فلسطين وسيناء والجولان ولبنان ؟

ان هذين السؤالين ، وما يتفرع عنهما بالضرورة من أسئلة أخرى ، يقوداننا الى محاولة تقصى الاصول الأولى للفكرة الصليبية ، حتى يمكننا أن نجد الاجابة المناسبة لكل سؤال ٠ وفى الحقيقة أنه لا يمكن تتبع أصول هذه الفكرة وجذورها على نحو فعال بسبب الضبابية الناجمة عن اختلاط المثال بالواقع ، أو تضاربهما ، فى كثير من الأحيان ، فضلا عن عدم وجود الأدلة التاريخية الدافعة التى تحدد البداية الحقيقة لهذه الفكرة ٠ وفكرة الحروب الصليبية ، كفكرة ، يصعب تعقب أصولها وجذورها ، شأنها فى ذلك شأن أية فكرة أخرى ٠ ومع ذلك فان لدينـــا من الشواهد والقرائن والأدلة الأستنباطية ما يساعدنا على رصد أصولها بشكل مقنع ، وان يكن غير حاسم ٠

لقد أشار المؤرخ الاقتصادى البلجيكى هنرى بيرين الى أنه لا يمكن فهم أحوال الغرب الأوربى فى العصور الوسطى دون تفهم حقيقة الدور الاسلامى وتأثيره على أحـــوال الغرب آنذاك ، وعلى الرغم من أن بيرين

أختـــار لكتابه الذى تنـــاول فيه هـــذه القضية عنوانا معبرا هـــو « محمد وشارلمان » ، فان محاولته لتأكيد التأثير السلبى للدور الاسلامى قد كشفت عن التعصب وسوء الفهم من جهة ، كما أثارت معارضة شديدة فى أوساط المؤرخين المتخصصين من جهة ثانية ، الأمر الذى يجعلنا لانعول عليه كثيرا فى هذا المجال ٠

ومن ناحية أخرى ، يرى بعض المؤرخين الغربيين أن التطور الذى شهدته أوربا فى العصور الوسطى ، انما كان نتاجا للتفاعل بين عناصر أوربية خالصة ، وأن أوربا كفت نفسها بنفسها ، ومن ثم فان فكرة الحرب المقدسة والدوافع الأولى للحروب الصليبية أمر يمكن تفسيره بمنأى عن المؤثرات الاسلامية ٠

وفيما يتعلق بالأصـــول الأولى لفكرة الحرب المقدســـة أو الحروب الصليبية ، ينبغى علينـــا أن نبحث عن جذورها الأولى فى طيـــات الفكر والثقافة فى أوربا المسيحية ٠ وهنا ينبغى أن نشير الى حقيقة هامة مؤداها أن الديانة المسيحية ديانة تميل الى السلم بشكل واضح ، فالتعاليم الواردة فى الأناجيل وفى أعمال الرسل تظهر ميلا قويا نحو السلم ٠ والحرب تعنى الذبح والتدمير والخراب ٠ وبالنسبة لآباء الكنيسة الأوائل كانت الحرب تعنى القتل الجماعى ٠ ومن المؤكد أن الكنيسة الشرقية فى بيزنطة كانت تعتبر الحرب شرا يجب تحاشيه ، وعدم اللجوء اليه الا بعد فشل الوسائل السلمية والدبلوماسية ، حتى لو كان الثمن هو دفع جزية باهظة ٠ وبسبب تعاليم القديس باسيل St. Basil ، أعظم مشرعى الكنيسة البيزنطية ، لم يكن الجندى البيزنطى يعتبر شهيدا اذا قتل فى الحرب ـ ولو كانت دفاعا عن بلاده ـ لأن الشـــهيد هو فقط من يموت متسلحا بالايمـــان ٠ ويكشف تاريخ بيزنطـــة العســـكرى عن أن الحروب البيزنطية كانت فى حقيقتها حروبا دفاعية ، وهو ما يبدو فى أعين المؤرخين الغربيين ، الذين تستهويهم الروح العسكرية ، ضربا من ضروب الجبن والتخاذل وهو فى

الحقيقة تعبير عن هـــذه الايديولوجية التى ترى فى الحرب شرا لا يليق بالمسيحى ٠

أما فى الغرب ، فقد كان الموقف جـد مختلف ، ذلك أن الشـــعوب الجرمانية ، لم تكن لترضى بهذا المنطق الذى فرض نفسه على التصرفات البيزنطية ، فضلا عن أن القديس أوغسطين نفسه قد صـاغ نظرية عن الحرب العادلة يمكن قبولها ، ويمكن أن يحبذها الرب ٠ بيد انه أعلن أن الحاكم هو الذى يقرر هـــذه العدالة ٠ وفى مجتمع له ظروف المجتمعات الاقطاعية فى أوربا العصور الوسطى كان لابد وأن تنهار نظرية أوغسطين عن الحرب العادلة ، ذلك أنه لم يكن يوجد فى ذلك المجتمع من لايحكم غيره سوى أقنان الأرض ، كما أنه لم يكن يوجد من لايحكمه غيره سوى الملك ٠ وكان التصرف الواقعى هو أن كل من كان ينال ضربة كان يردها بشـكل مباشر دون أن يفكر فى موضوع الحرب المقدسة ٠

ومن ناحية أخرى كان التراث الجرمانى فى غرب أوربا يمجد صفات العسكرية والبطولة فى المجتمع ، وكان لابد لهذا المجتمع العسكرى أن يجد تبريرا لعـــاداته العسكرية التى ورثهـــا عن ماضيه ٠ وقد تطور قانون الفروسية فى المجتمعات الاقطاعية الأوربية من خلال الحاجة الى وضـع القواعد والأصول التى تحكم وتوجه عمليات الحرب والقتال ، وبفضـــل المـــلاحم الشعبيـــة المتـداولة فى ذلـك الحين Chansons de geste التى تتحدث عن بطولات شارلمان ورولان ورفاقهما تم تكريس قيم البطولة العسكرية ٠ لقد كانت الروح العسكرية وقيم البطولة والاقدام محل تقدير فى الغرب الأوربى منذ زمن طويل ، اذا أنها كانت ــ بغض النظر عن رأى رجال الكنيسة ــ هى الفاصل الذى يميز النبلاء عن الأقنان ٠

ومن ناحيـة أخـرى ، فان المسلمين كانوا بالنسبة لمسيحيى الغرب بمثابة شبح رهيب يفرض نفســـه على سلوكياتهم ، فقد كان المســـلمون

يحكمون الشـــطر الغربى من عالم البحر المتوســـط ، من قطالونيا حتى تونس ، وكان الغرب يخشى أن يخرج المسلمون من مكامنهم الحصينة لكى يهاجموا الغرب مرة أخرى ، كما حدث من قبل عندما اوقفهم شارل مارتل عند تور ـ بواتييه فى فرنسا ، الا أن الخطر الاسلامى على أوربا الغربية قد زال تماما بوفاة الخليفة عبد الرحمن الثالث ، فقد بدأت القوة الاسلامية فى الأندلس رحلة الغروب والأفـــول ، على حين كانت حـرب الاسترداد الاســـبانية reconquista تؤتى ثمارهـــا ، وأخذت البابوية تبارك أية محاولة لتوسيع نطاق الممتلكات المسيحية على حســـاب المســـلمين فى الاندلس ٠

والواقع أن من يحاول أن يتصـــور الحيـــاة الأوربية فى العصـــور الوسطى دون أن يضع نصب عينيه ملامح الصدام والوفاق بين المسلمين والمسيحيين ، انما يشبه شـــخصا يغمض عينيه عن ضـــوء الشمس الذى يفرض نفسه عليه ٠ ذلك أن من يتأمل ســـطور المراسيم البابوية فى تلك الفترة لابد وأن يتأكد من احساس البابوية بجيرانها المسلمين الأقوياء ، وهو احساس يشى بمزيج من القلق والخوف والكراهية ٠

والحقيقة أننا يجب أن نبحث عن أصول الفكرة الصليبية فى طيات الصراع بين المســـلمين والمسيحيين فى شـــبه جزيرة أيبيريا التى كان المســـلمون قد احتلوا الشطر الأكبر منها منذ سنة ٧١١ ميلادية بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زيـــاد ٠ ويذهب المؤرخ الاســـبانى المعاصر اميركو كاسترو فى كتابة « حقيقة اسبانيا التاريخية » الى أن فكرة الحرب المقدسة عند المسيحيين كانت مستوحاة من مفهوم الجهاد الاســـلامى ، اذ يقول : « ٠٠٠ الحقيقة عندى هى أن الحيـــاة الأوربية عامة والحيـــاة الاسبانية خاصة فيما بين القرن التاســـع والقرن الحادى عشر للميلاد ، كانت نوعا من التصادم والتعايش بين المسلمين والمسيحيين ٠ وقد يكون هذا نوعا من التمايز فى الرأى ، ولكنى اعتقد أنه الحقيقة وأدافع عنه بكل

قوة · وهذا أمر ضرورى لأننى أريد أن أوضـــح من هم الاسبان وكيف كانوا ··· ان الحرب ضد المسلمين فى فلسطين وأسبانيا استلهمت من فكرة الجهاد أو الحرب المقدسة لدى المسلمين · ولا يهمنا فى هذا المقـام شكل هذا الاستيحاء ، بل يهمنا أن نؤكد على وجوده بصفة قاطعة ··· وفى رأيى أنه لا يمكن أن نتصـور أن البابا ليو الرابع فى سنة ٨٤٨ م ، أو البابا اربان الثانى فى سنة ١٠٩٥ ، كانا يجهلان أن القادة المسلمين كثيرا ما كانوا يذكرون جنودهم وهم يحثونهم على قتال الكفار بأن الله قد وعد الشهداء الذين يقتلون فى سبيل الاسلام بجنات تتوفر فيها شتى صنوف المتع ، وكان هذا هو ما يدفع بالمســـلمين ، المؤمنين بهذ الوعود ايمانا مطلقا ، الى النضال بكل قوة وبسالة ، ولابد أن تأثير هذه الآيات هو الذى مكن المسلمين من السيطرة على رقعة هائلة الاتساع من أرض العالم ، ولسنا نظن أن قادة المسيحية فى أوربا العصور الوسطى كانوا بحاجة الى أن يكونوا مستشرقين أو حتى الى معرفة اللغة العربية لكى يدركوا قيمة مبدأ الجهاد عند المسلمين ، ولا نتصور أيضا أن الجهاد فى الأندلس كان يستهدف الحصول على المغانم والأسلاب ··· »

ويمضى المؤرخ الاسبانى ليوضـــح كيف تأثرت اسبانيا المسيحية بالمسلمين فى مجال الحرب المقدسة ، وهو التأثير الذى بدا واضحا فى الرهبنات العسكرية الاسبانية التى تولت أمر حرب الاسترداد الاسبانية Reconquista التى بـدأت من الجبـــال الشـــمال فى القـرن العاشر ·

وفى تصورنا أن نجاح فكرة الحرب المقدسة فى اسبانيا قد استلفت نظر البابوية على نحو ما · ففى القرن الحادى احرز الاسبان المسيحيون أول انتصاراتهم الكبيرة بفضل النزاع الذى أخذ ينهش الجسد الاسلامى فى الاندلس عقب وفاة عبد الرحمن الثالث · وما أن أهل عام ١١٠٠ حتى كان المسيحيون يسيطرون على مساحة تتراوح ما بين خمس وربع مساحة

البلاد · وقد استمر مد حرب الاسترداد يزحف فى بطء ـ ودونما توقف ـ صوب الجنوب · وعلى الرغم من أن القضاء على الوجود الاسلامى بشكل نهائى لم يحدث ســـوى فى سنة ١٤٩٢ ، فان الملوك المسيحيين كانوا قد فرضوا سلطانهم على معظم أراضى شبه الجزيرة الأيبيرية منذ منتصف القرن الثالث عشر · وفى غمرة هذه الحرب الاستردادية ، كان المسيحيون قد استوعبوا تماما فكرة « الجهاد » الاسلامية وطوروها فى ثوب مسيحى خالص ·

ومنذ البداية كانت البابوية ترقب الموقف فى شبه الجزيرة عن كثب · وفى سنة ١٠٦٤ قدم البابا اسكندر الثانى الغفران كمكافأة لكل من يقتل وهو يحارب المســـلمين فى اسبانيا · كذلك حظيت جهـــود المسيحيين الاسترداية فى اسبانيا بالتعاطف والتأييد من جانب الأديرة الكلونية التى كانت تقوم بدور رائد فى الحياة الديرية آنذاك · وفى عصر البابا جريجورى السابع (١٠٧٧ ـ ١٠٨٥) كان كثيرون من الفرسان فى غرب أوربا ، وفى فرنسا على نحو خاص يتوجهون الى اسبانيا للمشاركة فى الحرب ضد المسلمين · وحتى نهاية القرن الحادى عشر ، كانت « الحرب المقدسة » فى اسبانيا تجتذب الفرسان المسيحيين المغامرين من الشمال ، وهو ما يعنى أن نهاية هذا القرن قد جاءت لتشهد على أن فكرة الحرب المقدســـة قد صارت حقيقة واقعة · وأخذت البابوية تنظر صوب الشرق البعيد حيث الاماكن المقدسة التى ترتبط بقصة المسيح لكى تكون ميدانا لحرب مقدسة أوسع مجالا ، وأبعد هدفا ·

بيد أن الفكرة فى حد ذاتها لم تكن لتسبب حدوث الظاهرة التاريخية التى نحن بصددها ؛ أعنى الحروب الصليبية ، ما لم تكن قد جاءت متوافقة مع ظروف العصر · وفى تصـــورنا أن فكرة الحرب المقدسة قد جاءت فى ظروف ملائمة تماما فى الغرب الأوربى والشرق الاسلامى والبيزنطى على حد سواء ·

فقد شـــهد القرن العاشر حركة اصـــلاح كنسية بزعامة الأديرة الكلونية · وكانت هذه الحركة الاحيائية الكبرى تستهدف اصلاح الأديرة ، والكنيسة ، واصـــلاح العالم · واصـــلاح العالم يعنى اخمـــاد الحروب الاقطاعية التى كانت ســـمة من ســـمات المجتمع الذى اختفت فيه السلطة المركزية ، وتعرض للكثير من الغارات الجرمانية · وقد كان الأســـاقفة ومقدمى الأديرة قد اندمجوا فى البناء الاقطاعى ككل ، وظهر من بينهم من يقود فرسانه فى حرب اقطاعية · ولم يجد المصلحون وسيلة لمنع الحروب الاقطاعية تماما ، ولكنهم توصلوا الى صيغة عملية لتحديد نطاقهـــا · وجاءت « هدنة الله » لتمنع القتال فى نهاية الاسبوع ، وفى الأيام المقدسة ، وطوال فترة الصيام الكبير · وهكذا لم يعد أمام الحروب الاقطاعية سوى فصل الصيف فقط · ومن ناحية أخرى ، فان حركة « سلام الله » قد شملت الأشخاص فى محاولة لزيادة عدد غير المحاربين · فقد كان محرما شن الحرب ومهاجمة رجال الكنيســـة ، والحجاج ، والتجار ، والنســـاء ، والمسنين ، والفلاحين وممتلكاتهم من الثيران والبغال ومستلزمات الزراعة عموما · وبعبارة أخـــرى ، كان « ســـلام الله » يحمى العناصر الكنسية والتجارية والزراعية والنسائية فى المجتمع من التعرض لهجوم المتحاربين · وقطع الأمراء على أنفسهم عهدا بالحفاظ على هذه القواعد · وعلى الرغم من ذلك ، فان الكثيرين منهم قد حنثوا فى أيمـــانهم · ولم تكن حـــركة « هدنة الله » « وسلام الله » تحظى بتأييد أحد الأمراء الأقوياء ما لم تكن هناك مصلحة خاصة له ·

وحينذاك وجدت الكنيسة أنه لابد من تكوين قوة سلام يخدم رجـــال الاكليروس فى صفوفها فى كل من فرنسا وألمانيا لاقرار النظام والضرب على أيدى من يعتدون على « هدنة الله وسلام الله » · وكانت هذه الخطوة بمثابة تغيير جذرى فى موقف الكنيسة من الحرب ، وتطورا هاما فى هذا السبيل · ورب قائل بأن الكنيســـة لم تلعب دورا فى الحرب ، بل كانت

تقوم بمهمة بوليسية · ولكن الواقع أن الكنيسة قد رفعت السيف ، وأخذت تضطلع بالدور العادى للدولة · وقد حدث فى ألمانيا ذات مرة أن أفلت زمام جيش السلام فنهب البلاد ، واضطر أحد الكونتات الى أن يجرد جيشا مضادا ليعيد النظام الى صفوف جيش السلام · وحين انقشع غبار المعركة التى دارت بين الجيشين كانت هناك سبعمائة جثة من رجال الكنيسة تغطى ساحة القتال ·

وهكذا أدلت البابوية بدلوها فى حركة الاصلاح بشكل أدى فى النهاية الى تأكيد مكانة البابوية وحكمها للعالم المسيحى الغربى · وقد تتابع على عرش القديس بطرس فى روما عدد من البابوات المصلحين ، الا أن أكثرهم تأثيرا كان هو ليو التاسع الذى وصف بأنه « المؤسس الحقيقى للحكومة البابوية » · وقد عمل هذا البابا على جعل السلطة البابوية حقيقة ملموسة فى سائر أنحاء الغرب المسيحى ، وبذلك استطاع أن يستحوذ على ولاء الأديرة الكلونية ومساندتها · ولكن رغبة البابا فى توطيد سلطانه سرعان ما دفع به الى الصدام الحاد والعنيف مع الامبراطور · هذا الصراع الذى تجسد كأوضح ما يكون بين البابا جريجورى السابع والامبراطور الألمانى هنرى الرابع ·

وكان البابا جريجورى السابع رجلا ذا ميول عسكرية ، فقد اقنع البابا اسكندر الثانى ، وهو لا يزال كاردينالا ، بتأييد العدوان النورمانى على انجلترا · وعندما اعتلى العرش البابوى كتب الى الامبراطور هنرى الرابع فى سنة ١٠٧٥ يقترح عليه تجريد حملة لاستعادة ممتلكات الامبراطورية الشرقية التى فقدتها بعد معركة مانزكرت · وكان واضحا انه ينوى أن يتولى قيادة الحملة المقترحة بنفسه ، ظنامنه أن هذه الحملة ربما تؤدى فى حالة نجاحها الى اخضاع الكنيسة الشرقية وتوحيد العالم المسيحى تحت زعامته · كذلك كان هذا البابا الطموح يشجع حملات الاسترداد فى أسبانيا · ولا شك أن البابا جريجورى السابع قد حاول أن

يجعل من ورطة الامبراطور البيزنطى ، بعد هزيمته فى مانزكرت ، ميزة عاجلة تفيد منها البابوية · ولكن استمرار الصراع بين البابا والامبراطور حول مسألة التقليد العلمانى عطل تنظيم أية حملة أو ارسـال أى جيش ابان بابوية جريجورى السابع ، وترك أمر تنفيذ ذلك الى خليفته أوربان الثانى الذى كان أكثر اعتدالا ، وأقل طموحا من سلفه ·

ونجد أنفسنا فى مواجهة سؤال يطرح نفسه فى الحاح حول دوافع البابوية الى الدعوة الى شن حملة مقدسة لمحاربة المسلمين فى الشرق · واذا ما أردنا البحث عن الاجابة المناسـبة وجدنا أنفسنا مقودين الى استعراض خطاب أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥ ، لعلنا نجد الاجابة فى طياته ·

كانت خطبـة البابا فى كليرمونت مثالا رائعا فى البلاغة · وعلى الرغم من أن هذه الخطبة قد وصلتنا فى عدة روايات مختلفة ، فالواضح أن هذا البابا قد استطاع أن يمس كل الدوافع التى كان يمكن أن توجد فى وجدان سامعيه · واذا ما اعتمدنا على رواية روبرت الراهب الذى كتب فى الربع الأول من القرن الثانى عشر ، وأعتمد على رواية أخرى أسبق زمنيا ، وجدنا أن البابا يخاطب « جنس الفرنجة » ويذكرهم بحسن عقيدتهم الكاثوليكية وشرف كنيستهم · ثم يحدثهم عن صنوف مرعبة من التعذيب الذى زعم بأن الأتراك المسلمين أنزلوه بالمسيحيين فى الشرق · ثم يثير اربان الثانى نخوة الفرسان الفرنجة « ··· دعوا مآثر اسلافكم تحفزكم الى القيام بما يليق بالرجال من أعمال · اذكروا أمجاد شـارل العظيم وعظمته ، وابنه لويس وغيره من ملوككم الذين دكوا ممالك الوثنيين ، ونشروا لواء المسيحية فى تلك البقاع · وليكن قبر سيدنا المخلص ، الذى تسيطر عليه أمم غير طاهرة ، حافزا لكم · ولتثر الاماكن المقدسة ، التى تعانى من المهانة نخوتكم ··· »

ثم أخذ أوربان الثانى يذكر سـامعيه بأن بلادهم التى يحدق بهـا

البحر والجبال أضيق من أن تتسع لاعدادهم الكبيرة ، كما انها لا تكاد تفى حاجة سكانها من الطعام ، ومن ثم فانهم يقتلون بعضهم بعضا · ويدعو البابا فرسان الفرنجة الى نبذ الكراهية ، ووقف الحروب المحلية ، وليسعوا جميعا على درب الضريح المقدس ليحرروه من نير المسلمين · وليحكموا هذه الأرض التى يذكر الكتاب المقدس أنها « تفيض باللبن والعسل » ·

والمتأمل فى خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت كما رواه روبرت الراهب ـ الذى يحتمل أنه كان واحدا من شهود المؤتمر ـ يستطيع أن يضع يده على بعض دوافع البابوية من ناحية ، والعلمانيين من ناحية أخرى ، وراء الدعوة الى شن حرب مقدسة والمشاركة فيها ·

لقد كانت دوافع البابوية مزيجا مختلطا · فان الحرب المقدسة ، كأداة من أدوات سياسة البابوية الخارجية كان تستهدف عدة أغراض ، منها ما هو معلن ومنها ما يفهم من استقراء الظروف التاريخية ؛ ففى المحل الأول كانت الحملة المزمع القيام بها تنشد استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، وحماية طرق الحجاج المسيحيين · ولا شك أن الرغبة فى نشر المسيحية كانت من عوامل دعوة البابوية الى الحرب الصليبية ، بيد أنه كان من الواضح أن البابا رأى فى مثل تلك الحملة فرصة لتوحيد كنيستى الشرق والغرب ـ اللتين كانتا قد تباعدتا تماما منذ الشقاق الكبير الذى حدث سنة ١٠٥٤ ـ تحت زعامته ، وتأكيد دوره كزعيم للعالم المسيحى ·

كذلك كانت البابوية ترغب فى توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب الذين لايكفون عن الاقتتال ، فى خدمة غرض عام يفيدهم ، لا سيما وأن حركة « سلام الله » « وهدنة الله » كانت قد لقيت تجاهلا تاما من بعض اهم مؤيديها · ويمكن أن نلاحظ أن سادة الأراضى التى تم استردادها

فى أسبانيا فى غضون القرن الحادى عشر ، قد صاروا أفصالا اقطاعيين تابعين للبابا فى روما · وهو ما يعنى أن البابوية كانت تسعى الى أن تكون الأراضى المقدسة ـ بعد استعادتها من المسلمين ـ تابعة للبابا وخاضعة لسيطرته · ومن ثم فان مثل هذه الحرب الصليبية سوف تكون تعبيرا عمليا عن زعامة البابا الروحية للعالم المسيحى ، وقد كانت هذه الزعامة تمثل ركنا جوهريا من أركان وجود البابوية نفسها ·

ومن ناحية أخرى ، فقد رأت البابوية أن الحروب الصليبية يمكن أن تجتذب شعوب شمال أوربا الى علاقات أكثر توطدا مع البابوية ·

ولا شك أن البابا جريجورى السابع قد حاول أن يفيد من ورطة الامبراطور البيزنطى ويحولها الى ميزة عاجلة تفيد منها البابوية بارسال جيش لاتينى يكون هدفه خدمة مصالح البابوية ، وليس حماية البيزنطيين من خطر المسلمين ، ولكن استمرار الصراع بين هذا البابا والامبراطور هنرى الرابع عطل تنظيم أية حملة أو ارسال جيش فى عهد جريجورى السابع · وترك أمر هذه الحملة الى أوربان الثانى الذى كان واحدا من أكبر دبلوماسيى عصره ، وقد نجح فى تضييق شقة الخلاف التى كانت تفصل بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية ، وتقبل فكرة الحرب المقدسة فى لهفة وشغف · وفى دعوته التى وجهها الى ذلك الجمع الحاشد من الناس فى الحقول خارج مدينة كليرمونت وعد الناس بالمكافأة الدنيوية ، كما قدم الغفران والخلاص لكل من يسقط فى حلبة الصراع ضد المسلمين ·

وعلى الجانب الآخر ، كانت دوافع من قبلوا المشاركة فى هذه الحرب المقدسة مزيجا غريبا ومثيرا من العوامل والأسباب · والحقيقة أننا لا يمكن أن ننكر أن العامل الدينى كان موجودا بشكل ما ، ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ولم يكن نابعا من تدين عقلانى حقيقى ·

ذلك أن الجو المحموم الذى أشاعته الدعاية المسعورة التى اذكت البابوية نيرانها ضد المسلمين ، جعلت نفوس بعض أولئك الفرسان تضطرم بالرغبة فى قتل المسلمين الذين شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحيين وتعذيبهم · ولأن غرب أوربا كان يجهل الصورة الحقيقية للمسلمين فان مقاتليه الذين ساهموا فى حرب الاسترداد الاسبانية كانوا يظهرون من دلائل القسوة والوحشية ضد المسلمين ما كان يتعارض بوضوح مع تصرفات الاسبان المسيحيين أنفسهم والتى اتسمت بالاعتدال الى حد ما · وعلى هذا ، فان المقارنة بين مبدأ الجهاد الاسلامى ، وفكرة الحرب المقدسة التى روجت لها البابوية تكشف من أن فكرة الحرب المقدسة ، على الرغم من اقتباسها لمفهوم الجهاد ، تفتقر تماما الى الشرعية التى جعلت من الجهاد ركنا اضافيا من اركان الاسلام · فضلا عن أن فكرة الحرب المقدسة التى اشعلت نار الحروب الصليبية قد ألبست ثوبا دينيا على الرغم من جوهرها السياسى · ولعل من أكبر البراهين على ذلك ، أن كتب كبار رجال اللاهوت المعاصرين لها ، ومنهم « توماس الاكوينى » الذى شارك أخوه فى الحروب الصليبية وأسر أثناءها ، لم يتعرضوا من قريب أو بعيد لفكرة الحرب المقدسة ·

ولا شك فى أن البعض الآخر قد أخذوا شارة الصليب أملا فى نيل الغفران والدخول فى رحمة الرب · ومع ذلك فان الفرسان الذين لا أرض لهم ، والأبناء الصغار فى الأسر الاقطاعية ممن لا يحق لهم وراثة الاقطاعات ، قد انضموا الى الحملة الصليبية يحدوهم الأمل فى أن يحققوا لأنفسهم الأرض والمكانة التى لم يتمكنوا من تحقيقها فى أوطانهم · وقد لعب البابا أوربان الثانى على أوتار هذا الأمل بشكل صريح فى خطبته الشهيرة مشيرا الى حالة الجوع الى الأرض التى باتت أوربا الغربية تعانى منها عشية الحروب الصليبية · ذلك أن غروب شمس القرن الحادى عشر جاء متوافقا مع تثبيت حدود الدوقيات والكونتيات الاقطاعية فى فرنسا ،

وقيام نمط بدائى من التوازن السياسى فيما بينها · وهو ما كان يعنى بالضرورة أن فرصة الأمراء الاقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن باتت ضئيلة بالفعل ، ومن ثم فان اشتراكهم فى الحروب الصليبية كان فرصة مناسبة لتحقيق طموحاتهم ·

لقد كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر يتوقون الى المغامرة فى الخارج ، وجاءت الحرب الصليبية لتروى ظمأهم وتعطشهم الى الحرب والمغامرة · وثمة أسماء كثيرة من الأسماء البارزة فى تاريخ الحملة الأولى تكشف عن مدى صدق هذه المقولة ، ومنهم ريمون أمير تولوز ، وجودفرى أمير اللورين · وكان من الواضح أن مثل أولئك الفرسان سوف يستجيبون لأية دعوة توجهها البابوية لشن حرب مقدسة ضد المسلمين من أجل استعادة الأراضى المقدسة ، اذ كان ذلك يكفل لهم الستار الدينى المناسب لارضاء نزعاتهم العدوانية · ومن ناحية أخرى · كان بعض الأمراء الذين شاركوا فى الحملة الصليبية يبحثون عن فرصة يحرزون فيها نصرا عسكريا يعيد لهم الهيبة التى فقدوها فى أوطانهم ·

وقد وجد البعض فى الحروب الصليبية فرصة للهروب من العدالة ، ذلك أن اشتراكهم فى مثل هذه « الحرب المقدسة » كان سيعفيهم من العقوبة التى يستحقونها جزاء ما اقترفوه من جرائم ·

أما النورمان فى ايطاليا فقد تحركوا للمشاركة فى الحملة الصليبية بدافع من كراهيتهم العميقة للامبراطورية البيزنطية ، ورغبة فى انتزاع الممتلكات لأنفسهم على حســـابها · فقد كان النورمان يرون فى الحرب الصليبية عمـلا عسكريا موجها ضـد البيزنطيين أكثر منها حربا ضـد المسلمين · وكان بوهيموند ، أبرز قادتهم ، قد قام فى وقت سابق بحملة ضد الدولة البيزنطية بالفعل ، وعلى الرغم من فشل مغامرته هذه ، فانه رأى فى الحملة فرصة لمعاودة الهجوم على بيزنطة بتشجيع من البابوية ·

وكانت المدن التجارية الايطالية ، والبندقية وعلى وجه الخصوص ، من أشد المتحمسين لفكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين ، بيد أن سبب هذه الحماسة لم يكن دينيا وانما كان اقتصاديا · ذلك أن هذه المدن التجارية رأت فى الحرب فرصة ذهبية لتدعيم وجودها التجارى فى عالم البحر المتوسط · بل ان البنادقة كانوا يأملون أن يحصلوا على موانىء على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط اذا ما نجحت الحملة · وقد حدث بالفعل أن نال البنادقة مكافأتهم حين عهد الصليبيون اليهم بنقل المؤن ، ومنحوهم الامتيازات الجمركية فى الاراضى التى استولوا عليها ·

أما صدى الدعوة الى الحرب المقدسة على الصعيد الشعبى ، فكان مثيرا حقا · وفى تصورنا أنه فى مجتمع له ظروف الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر ، حيث تسود مظاهر الجهل وتتفشى الأمية ، وحيث تختلط المفـــاهيم الدينية بالخرافات والخزعبلات ، كان لابـد أن تكون الاستجابة لمثل هذه الحرب قوية ، بل وهستيرية ، وهو ما حدث بالفعل · وفى هذا الجو تشيع أنباء عديدة عن الرؤى والأحلام المقدسة ، ويكتسب المشعوذون والمبشرون الجوالون ، من أمثال بطرس الناسك ، مكانة هائلة فى نفوس بسطاء الناس · لقد كان بطرس وأمثاله تجسيدا لحالة الهلع التى حكمت المجتمع الغربى مع اقتراب الألف الأولى بعـــد المسيح من نهايتها ، وتوقع الناس ليوم القيامة وفقا للمفاهيم التى أرساها أوغسطين وغيره عن عمر العالم · فقد تفشت بين الناس آنذاك حركة تدعوهم الى التكفير عن ذنوبهم ، والبعد عن الدنيا وزخارفها ، والتشبه بحال الزهد والتقشف التى عاشها الحواريون · وفى غمار هذه النوبة كان لابد للدعوة الى الحرب المقدسة أن تلاقى مثل هذه الاستجابة المحمومة ·

ويقول مؤرخ الحروب الصليبية الشهير ستيفن رنسيمان ان النجاح الغريب الذى حظيت به الدعوة الى الحروب الصليبية يمكن أن يفسر فى ضوء حياة الفلاحين فى شمال غرب أوربا التى كانت حياة عابسة وغير

أمنة · فقد خربت مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة أثناء الغزوات الجرمانية وغارات الفيكنج التى تلتها ، اذ تهدمت الجسور وفاضت مياه البحر ومياه الأنهار لتغطى الأراضى الزراعية · وغالبا ما كان السادة الاقطاعيون يعارضون محاولة ازالة الغابات والزراعة مكانها لأنهم كانوا يمارسون رياضة الصيد فى هذه الغابات كما أن القرية لم تكن تحت حماية أحد النبلاء الاقطاعيين غالبا ما كانت تتعرض للسلب والنهب ، أو حتى الحرق على أيدى عصابات الخارجين على القانون ، أو على أيدى المحاربين فى أثناء الدروب الاقطاعية · وعلى الرغم من أن الكنيسة حاولت أن تعلب دورا فى حماية الفلاحين المساكين ، فان ما قدمته فى هذا المجال لم يكن على أية درجة من الفعالة والأهمية · ومن ناحية أخرى ساهمت الكوارث الطبيعية فى زيادة المساحات القاتمة الحزينة فى الصورة ، فالفيضانات التى حدثت سنة ١٠٩٤ ، والمجاعات التى أعقبتها جعلت الحياة شبه مستحيلة ·

هكذا ، اذن ، لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية دورها فى الاستجابة السريعة المذهلة للدعوة التى وجهها البابا الى الجماهير الأوربية · لقد كانت جموع الفلاحين المطحونين فى مجتمع يستولى على نتاج عملهم فى الحقول ، ويتركم فى مستوى معيشى أدنى من حيوانات الحقل هم أول من استجاب لدعوة أوربان الثانى فى كليرمونت · لقد كانت استجابة نبلاء الغرب لهذه الدعوة متوقعة الى حد ما ، ولكن الذى لم يكن متوقعا هو الذى حدث على الصعيد الشعبى ·

وعلى أية حال ، فان البابوية سرعان ما أصدرت مرسوما عاما بالغفران لكل من يشارك فى الحرب المقدسة ويحج الى بيت المقدس · ثم أعلنت البابوية أنها سوف تتولى حماية أملاك المشاركين فى هذه الحملة ·

وهكذا بدأت الحروب الصليبية · وهنا ينبغى أن نشير الى أن هذه الحروب كانت تعبيرا عن موقف جديد تماما للكنيسة من قضية الحرب · لقد كانت الحروب الصليبية حربا بدأتها الكنيسة لا الدولة · ولم يكن المشاركون فيها يأتمرون بأمر حاكم أو أمير علمانى ، وانما كانوا يتطوعون لحمل شارة الصليب · لقد كانت الحروب الصليبية علامة على عسكرة المسيحية ، وتجلى ذلك واضحا فى حقيقة أنه كان يمكن لرجال الدين أن يحاربوا دون أن يتحملوا تبعات التوبة · حقيقة أن الحمـــلات الصليبية التالية جاءت تحت قيادة الملوك والأمراء العلمانيين ، ولكن الحملة الأولى كانت من عمل البابا ، على الرغم من أن الأمراء حملوا شـــارة الصليب استجابة لدعوته ·

وهكذا ، خرجت فكرة الحـرب المقدســـة الى حيز التنفيذ ، وكان الاصـــلاح الكنسى الذى قادته الأديرة الكلونية ، والسياســـة البابوية ، ونظرية الحرب المقدســة التى تطورت ، منذ فكرة القديس أوغسطين عن الحرب العادلة ، حتى صارت أمرا يجلب مرضاة الرب ، هى الخلفية التى استندت اليها خطبة أوربان الثانى فى كليرمونت ١٠٩٥ · وهذه العناصر هى التى شكل الروح التى دفعت الجهود الدعائية التى ساهمت فى تشكيل الجيوش التى توجهت الى فلسطين ، كما كانت الروح هى القوة الدافعة لحملة الفلاحين أو الحملة الشـــعبية · لقد كانت الفكرة الصليبية نتاجا لتفاعل القوى التى لبت نـــداء البابوية فى كليرمونت ، ثم خبرات أولئك الذين شاركوا فى الحملة الأولى بالفعل ·

والحقيقة عندى أن فكرة الحملة الصليبية قد ولدت فى أذهان الذين عايشوا أحداثها بالفعل ، ومن ثم فاننا يجب أن نتوخى الحـــذر ونحن نستخدم مصـــطلح « الحملة الصليبية الأولى » · ذلك أن صـــياغة فكرة الحملة الصليبية ، كمثال ونموذج ، قد تمت من خلال تجربة الحملة الأولى وخرجت من طياتها لتخلق نموذجا ثابتا فى أذهان الدعاة الى الحملات الصليبية التالية ·

وعلى مدى قرنين تقريبـــا ، منذ ١٠٩٦ حتى ١٢٩١ ، توالت على شاطىء المتوسط الشرقى موجات عديدة من الأوربيين ، فقد جاءوا بعشرات الألوف ، زرافات ووحدانا ، من الحجاج والأفراد المسلحين ، والمجموعات العسكرية الصغيرة بقيادة الأمراء الاقطاعيين ، والجيوش الكبيرة التى يقودها أكبر حكام أوربا آنذاك · وهو ما يعنى أن الحمـــلات الصليبية السبع الشهيرات لا تعبر عن واقع الحال ، اذ كانت الحملات الصليبية فى حقيقة الأمر أكثر من مجرد هذه الموجات التى كانت تضرب من حين لآخر على شاطىء فلسطين ، وانما كانت بمثابة تقاطر مستمر من الحجاج ، والمحاربين والقراصنة والنبلاء الجوعى للأرض ، الذين اتخذوا من الشرق العجيب مقصدا لهم ·

ان « الحروب الصليبية » بمقدماتها ونتائجها ، تقدم لمن يهتم بدراسة التاريخ مثالا فريدا عن مدى ما يمكن أن ينتج عن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية من استجابات : ففى أوربا الغربية كانت دعـوة أوربان الثانى تطرح أمام المجتمع الذى مزقه الخـلاف وأرهقته المشكلات هدفا عاما يمكن لهذا المجتمع أن يعبر عن نفســـه من خلاله · أما فى الشرق ، الذى تعرض للعدوان ، فقد كانت الاستجابة لهذه الحركة مختلفة تماما ، فمن مرحلة التشتت والركود ، وعدم الوعى بحقيقة الغزوة الصليبية فى بداية الأمر ، مما مكن للانتصارات الأولى للصليبيين ، انتقل المجتمع الاسلامى من مرحلة التقهقر الى المقاومة ، ثم الهجوم المضاد الذى انتهى بتدمير الجسم الغريب على تراب الأرض العربية بعد حوالى قرنين من الزمان ··· وتلك قصة تستحق أن تروى وحدها ·

وقد احتلت قصة الحروب الصليبية حيزا كبيرا من اهتمام المؤرخين والباحثين · وانكب منهم عشرات يفتشون بين غبار المعارك ، وأشـــلاء الضحايا وأنات الجرحى والمهزومين عن أجزاء الصـــورة التى يريدون استردادها من ذمة التاريخ · وأخرجت المطابع سيلا من البحوث والمؤلفات

تدور جميعها حول موضوع واحد هو : « الحروب الصليبية » · لقد اهتم الغرب بقصة هذه الحروب التى اتخذت الصليب شعارا ، والقدس هدفا ، وفى ظل الشعار والهدف ارتكبت أبشع ما يمكن للبشر أن يتخيلوه ، حتى بمقاييس العصور الوسطى التى اشتهرت بالقسوة وقلة الاهتمام بالجوانب الانسـانية فى الحروب · وعلى الرغـم من ادانة كثيرين من الباحثين الغربيين « للحروب الصليبية » ، فان هذه الادانة ، فى رأينا ، نابعة من حقيقة أن الحروب الصليبية قد فشلت فى أن تحقق شيئا وان كانت فصولها الرئيسية قد دارت على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان · بل ان من هؤلاء الباحثين من يرى أن الحمـلات الصليبية قد خرجت لكى تسترد الأرض المقدسة من المسلمين أولا ، ثم تحاول الاحتفاظ بها هى والأراضى الأخرى المجاورة لها باعتبارها أراض مسيحية · بيد أن هذا لا ينفى وجود بعض المؤرخين الذين جعلوا البحث العلمى والتعرف على الحقيقة أيا كانت هدفا ينبغى الوصول اليه ·

أما فى الشرق وفى الوطن العربى بصفة خاصة ، فان الدراسـات الحقيقية لهذه الحركة ما تزال قليلة الى حد الندرة · وعلى الرغم من أن كثيرا من الكتب والبحوث قد خرجت تتحدث عن « الحروب الصليبية » فان معظمها للأسف توقف عند حد رواية الأحداث بطريقة قصصية سردية · أما الدراسات التى حاولت الغوص فى أعماق الظاهرة التاريخية وتحليلها بالطريقة التى تتفق مع كوننا الطرف الذى وقع عليه العدوان ، وكان عليه أن يتصدى للمعتدين على مدى قرنين من الزمان استنفدت كثيرا من موارده وجهوده المادية والحضارية ، فقد كانت دراسات قليلة بالفعل ·

واذا ما تأملنـا حالنا اليوم ، ونحن نواجه الهجمـة الصهيونية المدعومة من العالم الغربى على نحو خاص ، ادركنا مدى حاجتنـا الى المزيد من الدراسات التى تكشف لنا عن جوانب عدوان الأمس علنا نستهدى التجربة ونحن نواجه عدوان اليوم · وعلى الرغم من أننا نؤمن بشـكل

قاطع أن التاريخ لا يعيد نفسه ، فاننا نرى أن ثمة من الحوادث التاريخية المتشابهة من حيث الدوافع والنتائج ما يعيننا على تلمس الطريق السوى · ونحن نرى أن ثمة جوانب كثيرة متشابهة ـ وليست متطابقة ـ بين الحركة الصليبية والحركة الصهونية ، ومن ثم فانه يصبح واجبا علينا أن نتصدى بالدراسات المقارنة فى سبيل كشف الأبعاد الحقيقية لكل منهما · وعسى الله أن يوفقنا الى عمل من هذا النمط ·

على أية حال ، فان الكتاب الذى نقدمه فى ترجمته العربية ، دليل على أن الاسرائيليين ينظرون الى الحركة الصليبية نظرة تختلف تماما عن نظرة كل من الغرب المسيحى والشرق المسلم ، فهم يبحثون لأنفسهم عن دور فى هذه المواجهة الطويلة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى محاولين تأكيد وجودهم التاريخى المستمر فى المنطقة من ناحية ، والتعرف على جوانب الفشل والاخفاق التى قضت على الوجود الصليبى فوق ذات الأرض التى زرعوا فيها · الكيان الاسرائيلى من ناحية أخرى ·

ولمؤلف هذا الكتاب كتاب آخر صدر باللغة العبرية وله ترجمة انجليزية وأخرى فرنسية وترجمة عنوانه « المملكة اللاتينية فى بيت المقدس » · ومن الطبيعى أن هذين الكتابين ليسا الوحيدين فى هذا الموضوع من أعمال المؤرخين والباحثين الاسرائيليين ، ونأمل أن نقدم فى المستقبل ان شاء الله دراسة بيبلوجرافية وهستوريوجرافية حول هذا الموضوع · أما المؤلف فهو الاستاذ يوشع براور أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى الجامعة العبرية فى القدس · والكتاب الذى نقدمه للقارىء العربى ، والذى يحمل عنوان « عالم الصليبيين » لا يتعرض لتفاصيل الحروب والمعارك وحالات الحصار ونصوص المعاهدات وانما يهتم بدراسة الجوانب المختلفة للوجود الصليبى · وفى تصورنا أن هذا الكتاب تعبير صادق عن الرؤية الاسرائيلية للحروب الصليبية ، وأن هذا هو ما يجعل الكتاب هاما بالنسبة للقارىء العربى لا سيما وأن هناك تشابها بين الكيان

الصليبى والكيان الصهيونى مع تسليمنا بوجود الاختلافات أيضا · ولسنا نقصد فى هذه المقدمة أن نتعرض للكتاب بالنقد حتى لايقع القارىء فى شباك الفكرة المسبقة ، بل اننا نترك القارىء مع النص ، ثم نسـوق له ما يعن لنا من ملاحظات فى تعقيبنا على الكتاب · كما أننا توخينا أن نقلل من تعليقاتنـا على النص فى الهوامش قدر المستطاع على أعتبـار أن التعقيب سوف يتضمنها ·

وأخيرا فاننا لن نشير الى مشاق الترجمة ، فذلك أمر نراه طبيعيا ، ولكننا نرجو أن نكون قد وفقنا فى نقل هذا النص الانجليزى الى العربية بشكل مفيد ويفى بالغرض ، والله الموفق والمستعان ·

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم · أغسطس ١٩٨٠